قصيدة العزلة

عبد الكريم الناعم

على جمرة الوقت
روحي توسّدُ قَشَّ الولاءِ القديم
ابتهالاً
وتجلسُ تُدفئ آخرَ نبضٍ لديها
يقوم إليها من الزّمن المستهلّ غريبٌ
يمرُّ بباب الحنايا
غريبٌ تَقَاطَعُ فيه الدّروبُ الّتي
غرَّبَتْنا ـ
الدّروبُ الّتي أطْلَقَتْنا على فُسْحةٍ من
نُضارِ الكلام،
وزهرٍ تَفَتَّحَ سِرّاً
يمرُّ بباب الشّظايا
ليبكي عليها

لماذا وقد أثْقَلَتْكَ السّنونُ العجافُ
تجيءُ
ومَن قال إنّي سأعرفُ أنّك جئتَ إلى
البابِ قبلَ اندلاع اليبابِ فحنَّتْ
خوابيكَ حتّى امتلاءِ الكروم
ومن قال إنّ الغيومَ على أُهْبَةٍ من
رذاذٍ؟

تدثَّرْ بما في الحنين وغادرْ
فلم يبقَ غيرُ إطارٍ قديم
تهدَّلَ فوق جوارٍ عتيقٍ
ولم يَبْقَ غيرُ الصَّدىٰ كالحاً
والغزالاتُ جفّتْ
تنامُ على يابس الجلد يوماً
ويوماً على رعشةٍ في العظام
وتُصغي لِصَمتِ الخواءْ

لماذا أتيتَ؟
لقد ـ منذ عهدٍ ـ ترسَّبَ فيكَ
وفيَّ الصّقيعُ المُمِضُّ
وغابت عن العين تلك السّماءْ
لماذا تجيءُ؟!/ ابْتكِرْ آيةً للغيابِ/ ـ
الحضورُ: زوالٌ،
وصوتُكَ: منفى
تَدقُّ على البابِ؟
إنّي أخافُ من الزائرينَ
فَعُدْ حيث ذاكَ الظّلامُ المديدُ،
وكُنْ هامداً،
بين قبر وقبر ظلالُ الحياةِ،
فكُنْ آيَةً في الهجوعِ،
ولا تبكِ شيئاً،
فذلك أشفى
لقد ذهبَتْ أيْكَةُ الصَّنج، والعودُ،
والسَّهَرُ البابليُّ،
ولم يبقَ غيرُ هذا الّذي
ضيَّعتْهُ الموانئُ مَرْفا
فلا تقتربْ
وتَرَجَّلْ بعيداً
ونفِّضْ ثيابَكَ، عَقْلَكَ منّي واخْرُجْ
إليهم
فإمَّا وجَدْتَ مَن اللّيلُ والخمرُ شدَّاهُ
نحْوَ الهديلِ الحنونِ فجئتُ إليه من
العُمْقِ
عَدْواً.. فَتَمتَمَ باسمي، فقُلْ:
«ذهبَ القَشُّ فيه بعيداً
فكان حصيداً
فجَفَّ وأغفى
فلا توقظوهُ
أعدّوا له بيدراً من هشيمٍ
زمانُ السّنابلِ ولّىٰ
وهذي الطّيورُ تُنَقِّرُ في حجرٍ،
واليباسُ كثيفٌ،
أعِدّوا له من مناقيرِ ما ماتَ منها
وشاحاً.

جفافٌ
من القَشِّ فيه
إلى آخر الجُرنِ ليلاً
و...
هذي البلادْ

جفافٌ
ويبحثُ عن مقلتينِ لذاكَ المدادْ
ليكتب شيئاً
لينزِف شيئاً
هو النّزفُ نبضٌ
وموتُكَ نَسّاً وقد جفَّ صوتُكَ حتّى
عن الآهِ تندى
يحرِّضُ ذاكَ الصّراخَ الجليلَ،
وأنتَ الشّهيدُ،/
وتَعرِفُ،/
صوتٌ يفورُ بما في الينابيع سكرى،
أيَسْكَرُ ماءٌ بماءٍ؟!!
بلى
كان ذاكَ،
وينفجرُ الماءُ من صخرةٍ لا تنامُ
وتجري السّهوبُ إليهِ
فكلُّ المسافاتِ/ من أوّلِ الصّوتِ
حتّى شواطئِهِ الباذخاتِ: غناءٌ نديٌّ،
وزهرٌ،
وحلمٌ يسافرُ بين يديهِ
وتعرفُ ما كانَ ينسىٰ

أليس غريباً تجفُّ العروقُ وذاكرةُ
الروحِ
تبقى على خُضْرَةِ السّيفِ تسعى؟!!

لماذا أتيتَ؟
على أيّ دربٍ؟

←

أما زالَ ثمّةَ دربٌ يقودُ إلى حيثُ
لا دربَ غيرُ الجفافْ؟!
أما زالَ في الشّرفةِ البدرُ، والنايُ،
والعشقُ، والانشداهُ
وطائرُ عِطرٍ يهوِّمُ
آنَ يهيجُ القطافُ القطافْ؟

أما زالَ صوتٌ، ولَوْ من صدى،
مُعْشِبُ؟
أما زالَ آنَ تدور الكؤوسُ
يشعُّ بأطرافِها كوكبُ؟

أمَا...؟
كيف تصغي؟!
أما زال صوتيَ يجري؟!
أما جَفَّ؟!
صفْ لي اخضرارَ الحروف/ مياهَ الكلامِ/ ـ
الغصونَ/ الطّيورَ وقد أَرْهَقَتْها اشتعالاً
وأعراسَ فوضى.

هي المسافاتُ تنأى
وبيني وبين المضيقِ من الرَّهْوِ حَدُّ
كما شعرةٍ من دخانٍ
وحائطُ وردٍ تجلَّدَ فيه الأريجُ كما
كِسْرَةٍ من زجاجٍ
فَشفَّ فؤادي
فَنَاءَ الهواءُ

أما زالَ في العالمِ الخارجيِّ شجارٌ،/
وهجْرٌ،/ وبَوْحٌ،/
وفي اللّيلِ مازالَ ـ آنَ الجوانحُ
تندى اشتياقاً ـ
يطيبُ البَداءُ
وقبلَ انبلاجِ الصّباحِ
على غَرَّةِ العودِ يزهو (البياتُ)[1]
شجيًّا
فيحلو الغناءُ؟!

أَمَا...؟
تلك روحي على خطوةٍ من ذهابٍ
وتلك البداءاتُ نامَتْ
وثَمَّ رصيفٌ يحنُّ إلى لَغَطِ الخطوِ
ليلاً،
وكلُّ اللّواتي تَتَبَّعْتُ فيهنَّ دربَ
الولوعِ الرّهيفِ ذهبْنَ بعيداً
وغامتْ تخومٌ وراءَ استباقِ الوعولِ
اللّواتي....
.....
بلادٌ مع الحلم غارتْ
وفي الدمِّ دَفٌّ/ وطائرُ دُفلى/
وبعضُ السّواري وما من شراعٍ

تباركَ ذاك الأسى عالياً
في انكسار المرايا
تبارك شُحُّ الخلايا
تباركَ أنّك تذهبُ عنّي بعيداً
فلا تبكِ آنَ اجتيازكَ بابَ المجيءِ
الأخيرِ
فإمّا التفتَّ وشاهدتَ سرباً على
شاهقٍ مستريباً، وهاجَ بكَ الوجدُ
فاقرأْ من الشّعرِ عَشْراً
وسبّحْ بحمدِ الّذي سبَّحَتْهُ البحارُ
هنالك روحي تكون على حزنها
فارقَتْ
بيتَها الآدميَّ الجميلَ وراحتْ
إلى حيثُ كلُّ الزّمانِ نهارُ
وقد لا تَليقُ بما في الأعالي
فيُفْدى بها،
ثَمَّ بَدْءٌ جديدٌ
وآدمُ يسعى
وهذا السِراجُ على شُحِّهِ
كوكبٌ من عَثارٍ وتَوْقٍ
ونَفحةُ كأسٍ شجيّ تدارُ
تُدارُ على جمرةٍ من رذاذ الأماني ـ
وقَشِّ الذّهولِ الجديدِ،
وقد لا تجيء إليَّ وقد غرّبَتْني الغصونُ
على خُضْرَةِ الإنبهارِ

فدَعني
سآوي إلى آخرِ الرّكنِ،
دعني،
ولا تنسَ أن تُغْلِقَ البابَ
كيلا تراني
وكيلا أراكْ

فدعني
سآوي
وما عاصمٌ من ذهابٍ
فدعني
سآوي إلى غربةٍ لا تبينُ،
وأسْكُبُ روحيَ في جذعِ زيتونةٍ
فعسى أن أُضيءَ، ـ وتبلُغ قبلَ
ارتدادِ الخواطرِ فيَّ ـ الّذي
حَسِبَتْهُ البداءاتُ منها
ذراها هناكْ

فدعني
ولا تنسَ أن تُغْلِقَ البابَ
كيلا تراني
وكيلا أراكْ
فلستُ،
ـ إذا لم أكنْ قد نسيتُ
اخضرارَ المعاني
وقد أثْقَلَتْني ـ
فلستُ سواكْ.

(١) البيات: أحد مقامات الغناء العربي السّبعة.

حمص ـ سوريا